ملف خاص

لسنا وحدنا من يبكي عليه

بقلم: محمد نادر فرج
سورية

بعد صراع مرير مع مشاق الحياة، وبعد مسيرة مضنية، أنهكت هذا القلب، وأرهقت كاهله، حتى جعلته لا يكاد ينبض إلا في صعوبة وعياء، توقف هذا القلب الجلد المؤمن المجاهد، ليخلد إلى الهدوء ويستقر في طمأنينة وثبات.

توقف هذا القلب ليرقد صاحبه الفاضل، الأستاذ محمد حسن بريغش بهدوء وسكينة بإذن الله، في مهد رحيب ومرقد فسيح، أزهق عمره في تدشينه، تحفه فيه ملائكة الرحمة إن شاء الله تعالى وترعاه.

بمزيد من الأسى والحزن تلقينا نبأ رحيل الأستاذ الفاضل محمد حسن بريغش، على الرغم من أن حالته لم تكن خافية علينا من خلال معاناته وصراعه مع مرض القلب الذي يدافعه منذ سنوات، وقد اشتد في الآونة الأخيرة، وخاصة بعد فقد ابنه الأوسط في حادث سير قبل قرابة عام، وكنا عزمنا مع بعض الإخوة على زيارته في اليوم الذي توفي فيه، ولكن القدر كان أسبق منا.

لسنا وحدنا من يبكي عليه، ولا ذووه وأقرباؤه، وليس فقط من يعرفه عن قرب أو عن طريق كتبه ومؤلفاته وآثاره الطيبة، أو من شاركه في بعض أنشطته في الدعوة من خلال المؤتمرات أو عن طريق رابطة الأدب الإسلامي أو غير ذلك، وإنما تبكي عليه الوهاد التي كان يعلوها، والدروب التي كان يسلكها في حلكة الغسق قبيل الفجر ليوقظ إخوانه إلى صلاة الغداة منذ شبابه الأول، وقد كان يسعى بكل جهده كي يعود إلى مرابعه الأولى ويودعها قبل رحيله، ولكن قدر الله غالب.

هذا أمر الله ولا راد لقضائه، ولو كان من هو أجدر بالخلود في الدنيا لحاجة الناس إليه، أو لجلال قدره وعلو درجته لكان الرسول الأعظم ﷺ، وهو الذي لم تفجع الأمة بأعز ولا أغلى منه.

لا يضيرنا أن نتفجع على أمثال هؤلاء الأفذاذ من مشاعل الضياء في هذه الأمة ما دمنا لا نقول إلا ما يرضي ربنا، فإن المصاب بأمثالهم عظيم، والخسارة بهم فادحة، فهم ينابيع الخير ومنهل العطاء، وإن السماوات والأرض لتبكي فراق العبد المؤمن وتفتقده كما ورد، وعلى الأخص موطئ سجوده، ومسراه إلى المساجد، في حين أخبر الله تعالى أن السموات والأرض لا تبكي على الكافرين والعصاة، ولا تتفجع في موتهم كما قال جل

وعلا : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴿٢٩﴾ (الدخان)، ولعل هذا كناية عن مواطن الطاعة في حياة الإنسان، فهي التي تفتقده وتبكي عليه، وكذلك القلم والقرطاس وكل آلة يستخدمها في العطاء والخير .

ولعل من المؤسف أن هذه المخلوقات الفطرية التي ليس لها عقل أو إرادة، تدرك في هذا المجال أكثر مما يدركه الكثير من الناس، فهي تعرف من تبكي، ومن الذي يستحق أن تحزن عليه، على عكس الكثير من الذين يبكون أصحاب المجون والفسق ممن يدعون بأهل الفن، وربما دفع بعضهم الحزن على أحد أولئك الفسقة إلى الانتحار ليرافقه على طريق الجحيم، ولعلهم يبكون مرضا يصيب لاعب كرة أو حادثا بسيطا يقع له، في حين أن العلماء لا ناعي لهم ولا باكي عليهم، وهم أجدر الخلق بذلك، ولو يعلم الناس ما يحيق بالأمة لموت عالم رباني لبكوه، وبكوه كثيرا، فإن العلماء هم مصابيح الضياء، ومشاعل النور، وإن كنا لا ندرك هذه الحقيقة - ويا للأسف - فلا نأبه لهذه الخسارة الفادحة، لبعدنا عن منابع الهدى، ومناهل الضياء، وقد ورد أن العلم لا ينتزع انتزاعا وإنما يرفع بموت العلماء . ونحن كما يقول الدكتور القرضاوي يحفظه الله : « إن أمتنا تؤمن بعبقرية القدم ولا تؤمن بعبقرية القلم » .

وإننا إذ نشكر الصحف التي قامت بنعيه رحمه الله، ونهيب بكل وسائل الإعلام أن تتحمل مسؤوليتها في توجيه أجيال الأمة للاهتمام بأمثال هؤلاء في الحياة وبعد الممات، فإن هذا يزكي في ضمير الشباب محبتهم واحترامهم وهو بالتالي يدفعهم إلى الفضيلة والاستقامة، ويبعدهم عن الخنى والانحراف.

رحم الله الأستاذ الفاضل، فقد كان بحق ذلك الجندي المجهول الذي نذر حياته لمجد هذه الأمة ونصرة دينها، بعيدا عن الأضواء، في منأى عن البهارج والزينات، متواريا عن الأنظار، لا يبحث عن شهرة، ولا يتطلع إلى مكانة، ولا يرجو من أحد عطاء إلا مرضاة الله تعالى والتقرب إليه، وهو لا يخشى في ذلك لومة لائم، هذا ما نعرفه عنه ونسأل الله تعالى أن يقبل شهادتنا فيه ونحن لا نزكيه لديه فهو أعلم به .

لقد كرس رحمه الله حياته وجهده وقلمه في خدمة هذا الدين لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه، وسخر كل طاقاته لتسير في هذا الاتجاه، فقد كان في سلوكه وتعامله مثلا أعلى في الاستقامة والالتزام، وهو النموذج المميز في المفاصلة، فإن كل علاقاته كانت مبنية على ذلك، فهو يجل العلماء من المسلمين، ويتودد إلى أهل الصلاح من الخاصة والعامة، في حين يدابر الخارجين والمنحرفين من العصاة والمارقين أيا كانت مراتبهم أو مكانتهم، وهو رحمه الله على رقة طبعه كانت عنده حدة في التعامل مع هؤلاء وغلظة - ربما تكون زائدة أحيانا، وخاصة في مراحل شبابه - في عزة وأنفة . وهو من جند نفسه وحياته كلها للدعوة إلى الله. ولعله ممن ذكرهم الله بهذه الآية وإن كان تشدد في فهمها وتطبيقها وهي قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴿٥٤﴾ (المائدة)، فقد كان شديدا صلبا على مناوئيه، ولعل هذه أبرز سماته، وربما هذا ما جعل بعض المناوئين وما هو ليس بالقليل من الخصوم، وهو لم يخاصم في حياته قط إلا في الله، ولم يوال إلا فيه، وإن كان ذلك خاضعا لقناعته .

لقد كانت أعراض الدنيا بالنسبة له كفاية يتبلغ بها حاجته، فلم يكن ليأبه كثيرا، كما أنه لم يعرض عنها ليتكفف الناس في حاجاته منها، ولكن كل إخوانه يشهدون بأنه لم يخاصم على مادة أيا كان نوعها من مال أو عقار أو نحوه قط، بل إنه ربما دخل في إصلاح بين الإخوة فغرم من حر ماله في إنهاء ذلك دون أن يشعر المتخاصمين، لحرصه على وحدة إخوانه ولكي تسود المودة والمحبة بينهم .

وهو في آثاره وكتبه رحمه الله تعالى يسير وفق هذا المنهج، فليس له من اهتمام إلا بقضايا الإسلام والأمة الإسلامية، وما يتفرع عن ذلك من قضايا في الأدب واللغة والتراث، وكلها تصب في محيط واحد، وترمي إلى هدف خالد، ولم يكتب قط في شأن خاص من شكوى أو أنين .

لقد كانت كتبه رحمه الله تعالى في التراجم والسير والأعلام من سلف هذه الأمة مدرسة تربى عليها الكثير من شبابها وأبنائها، ولا شك أن لها دورا هاما في هذه الصحوة المباركة، فهي منهج وطريق لمن أراد المجد والسؤدد، وإنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . فقد تربى الكثير من شباب هذه الصحوة المباركة على أمثال ذلك من كتبه : مصعب بن عمير، وخالد بن سعيد بن العاص، وأبو بصير، ونسيبة بنت كعب، وأسماء بنت أبي بكر (ذات النطاقين)، هذه الدرر الخالدة التي رسمت مسلك البطولة وشقت طريق الفلاح .

وهانحن أولاء نجده في ميدان الأدب وهو صاحب القلم المخلص الواعي، يأسى لما روج للنقد الأدبي والدراسات الأدبية من مناهج وأساليب تنحدر نحو التغريب عن قيمنا وتراثنا وحضارتنا لتحذو حذو الغرب في كل ما تفتقت عنه أذهان أولئك الذين لا تصلنا بهم واصلة من مبادئ أو قيم، وسادت هذه التبعية حتى هيمنت على الساحة، في حين أقصيت الأقلام المخلصة الواعية، وحورب أصحابها، فلا تهتم بهم دور النشر ولا وسائل الإعلام، ولكنهم مع ذلك استطاعوا إثبات وجودهم وخاضوا المعركة بكل مروءة وشرف، فكان رحمه الله تعالى يهتم بهؤلاء في دراساته النقدية ليعرف بهم، ويتعرض لملامح هذا الأدب الرفيع، وقد كتب في ذلك الكثير، ثم جمع بعضها في كتابه (في الأدب الإسلامي المعاصر) وهو كما قال في مقدمته (دراسة تضم عددا من الموضوعات التي تحاول إيضاح ملامح الأدب الإسلامي، وتحديد أطره وتقويم بعض إنتاجه) . حيث عرض بعض الأعمال الأدبية في مجالي الشعر والقصة، بعد أن تعرض لدراسة التاريخ الأدبي، ثم عرض لمسار الأدب الإسلامي ومحاولات التزييف فيه . وقد أفصح عما يتمناه للأدب الإسلامي والأدباء المسلمين من ازدهار ورفعة، مؤكدا على الهوية الإسلامية الواضحة المعالم، من خلال إشادته بقصة (القابضون على الجمر) لمحمد أنور رياض، و (رحلة إلى الله) للدكتور نجيب الكيلاني رحمه الله تعالى، وما عقده بينهما من مقارنة في دراسة وتحليل .

ولقد تحمل رحمه الله تعالى كثيرا من العناء وبذل الكثير من الجهد والمال في تحقيق ديوان هاشم الرفاعي رحمه الله وجمع أعماله الكاملة مبرزا جوانب نبوغه وعبقريته، محققا ومحللا وباحثا في دوافعه الشعرية، وخصائص شعره وأسلوب حياته .

كما أن له جهدا لا ينكر وعطاء لا يجحد في مسار المناهج في الرئاسة العامة لتعليم البنات في المملكة العربية السعودية التي قضى فيها قرابة ربع قرن، بين رضا القائمين عليها، وهم من أهل الفضل والثناء، وسعادة المرافقين له في درب العطاء والنماء من الزملاء والمدرسين، وتوجيه أجيال ممن أصبحن رائدات في ميادين العلم والمعرفة، يتبوأن مكانا مرموقا في مسيرة الخير وسبل التقدم والازدهار .

لقد كان شديد الحماسة لفكرة الأدب الإسلامي، ولذلك لم يقف فقط عند حد الكتابة والترويج لهذه الفكرة، بل نجده يسير بخطا عملية على أرض الواقع، فها هو يسهم مع الشيخ أبي الحسن الندوي والمخلصين من رواد هذه الأمة وأدبائها في إنشاء رابطة الأدب الإسلامي العالمية، لتكون ملاذا للأدباء الإسلاميين، ومعقلا يأوون إليه، ومنبرا يرسلون منه صيحاتهم لتبلغ آفاق الكون، وموطنا يتواصلون فيه، ولعله هو والدكتور عبد القدوس أبو صالح أبرز من وقف مع الشيخ الندوي، وقد عهد إليه لفترة طويلة بأمانة سر الرابطة، وكان له دور بارز، وجهد عظيم في تدويل الرابطة وعالميتها، وإعطائها المكانة المرموقة التي هي لها أهل .

رحم الله الأستاذ أبا الحسن، فقد كان شعلة تتقد ضياء وحيوية، وإني لأذكر له كيف كان يتتبع كل دلالة معنوية يوحي بها تعبير موجه بحس متقد، وفهم نافذ، وحماسة فريدة . ومثل ذلك حين يعرض في قصة أبي بصير لموقف دخوله رضي الله عنه على رسول الله ﷺ بعد أن أنقذ نفسه من المشركين إذ رده لهم رسول الله التزاما بالصلح، حيث يقول رسول الله ﷺ : « مسعر حرب لو كان معه رجال » نجده يحلق في هذه العبارة إلى آفاق عالية وأغوار بعيدة، مظهرا كيف أن الرسول ﷺ أراد أن يشدّ على يده، كما أراد أن يكون معه رجال، وقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم هذا المراد، فأخذوا يوجهون له كل من فر من المشركين ناجيا بدينه حيث لا مجال لقبولهم عند رسول الله ﷺ ، إلى أن شكل كتيبة محاربة ذات شوكة، أفزعت الكفار وأدمت كاهلهم، وملأت قلوبهم بالرعب والخوف، حتى ليرجون من النبي ﷺ أن يقبلهم في المدينة، وهو في حل من شرطهم . ولكنه يأبى ليزيد من وطأة ذلك عليهم .

لقد عانى رحمه الله تعالى ما عاناه لجرأته في الحق وشدته مع خصومه، وعاش بعيدا عن أهله غريبا عن وطنه أكثر من ثلاثين عاما، يتعاوره الحنين، متلهفا للعودة في حلم مستمر معه، لا ينقطع ما بقي على قيد الحياة، يتحرق شوقا إلى مرابع أهله وذكريات طفولته، التي كانت عامرة بنشاطه وهمته، وها هوذا يودع العالم قبل أن تتحقق له هذه الأمنية .

كان عالما عاملا ومعلما فذا ومشكاة مضيئة، فنسأل الله تعالى له الرحمة والغفران، وأن يسكنه فسيح جناته، ويثيبه بجهاده الذي لم يكتب له أن يحقق فيه بحياته ما كان يصبو له، حياة فوق ذلك في الآخرة، وأن يجمعنا به في مستقر رحمته، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، إنه ولي ذلك والقادر عليه . ■